همسات معلمة:
البحث عن التقدير الضائع

سوزان سليم كحيل

كانت السماء ملبدة بالغيوم حيث عشقي لفصل الشتاء وقطرات المطر الغزيرة تنهمر، كنت يومها جالسة بجانب النافذة، بدأت الأفكار تصول وتجول في نفسي، تذكرت حينما كنت في العراق مسقط رأسي، قارنت بين حياتي في وطني وفي المنفى حيث ترعرعنا على حب الوطن آنذاك كوطن مؤقت لنا نعيش فيه، ننشد النشيد الوطني، أذكر كلمات منه (وطن مد على الأفق جناحا ... وارتدى مجد الحضارات وشاحا).

كنت في الثامنة من عمري أمشي في الشوارع وألعب مع صديقاتي، ها هي آلاء تلعب دور ربة المنزل، تغسل وتطعم دميتها الصغيرة، وهذه أنا أمثل دور المعلمة التي تمسك الكتاب والطباشير لتعلم الأطفال لأنها تريد أن تصبح معلمة، وهذه زينب تمثل دور الطبيبة. حقاً أنني أذكر كل ذلك تماماً وكأنه الأمس.

جاء وقت العودة إلى وطني العزيز فلسطين، فبدأت استنشق رائحة الوطن. عندما رجعت إلى بلدي كنت في السادسة عشرة من عمري، التحقت بالمدرسة الثانوية في الصف العاشر في مدرسة الزهراء الثانوية للبنات في مدينة غزة.

لقد اختلفت طريقة الحياة والتعلم والأشخاص، أصبح بداخلي ارتباك كبير بين ما تعودت عليه في بغداد، وبين ما أراه واقعاً أمامي. كنت اشعر أني غريبة وأنا في بلدي، فطريقة تفكير الطالبات والمعلمات كلها أشياء بدت غير معروفة، هذه معلمة الكيمياء التي كنت أحبها، والتي كانت قريبة من قلبي، فأسلوبها جذّاب وتهتم بمشاعر الطالبات. تذكرني بما كان، حيث كنت أحياناً أشكو لها همومي، وقلة حيلتي، ولا أخفي عليكم أن ظروفنا عندما رجعنا إلى أرض الوطن كانت صعبة وقاسية مادياً واجتماعياً، حيث كنت أجد في هذه المعلمة المتنفس، وكنت متفوقة في مادتها وأحصل على

جانب من مشاركة المعلمة سوزان كحيل في لقاءات التكون المهني في غزة.

أعلي الدرجات، بعكس معلمة الرياضيات المتعالية المتكبرة، التي تبدأ الحصة بالأرقام وتنهي بالأرقام، لا تهتم لأي طالبة، لذلك أصبحت أكره حصتها من كل قلبي، ودرجاتي فيها كانت متدنية. في كل حصة رياضيات، كنت أرغب في كسر حاجز الجمود بيني وبين المعلمة لكن دون جدوى.

عندما تحب المعلم تحب مادته، وعندما تكره المعلم تكره مادته، واستمرت عقدتي في الرياضيات حتى عمري هذا، مع أنني تفوقت فيها بعد ذلك، ربما السبب هو المعلم.

من هنا، بدأت أقارن بين التعليم في العراق والتعليم في غزة، في السابق لم يكن عندي رهبة أو خوف من الدراسة والتعلم، لأن التعلم في العراق يعطينا الثقة بالنفس، وبقدراتنا، وبإمكانية التطوير وتبديل الذات، ربما السبب المعلم، أما هنا، فشعور القلق والخوف مما هو قادم يلازمنا، لا أدري ففي غزة شعرت أن التقدير ضائع،

والطلاب مهضومون، والمعلم يفرغ شحنة غضبه من شدة الأعباء الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التي تقع عليه في الطلبة، لذلك بعد أن كنت ألعب مع صديقاتي وأتقمص دور المعلمة، أصبحت أتحفظ على مهنة التعليم، وكونت فكرة في المحصلة أن مادة الرياضيات صعبة، تُكرّه الإنسان فيها، ولكني لم أستسلم، ولم أخضع لليأس لحظة، وحاولت أن أطور من نفسي، فتتحسن درجاتي في الرياضيات مع أني لا أحبها مادةً ومعلمةً.

جاءت مرحلة التوجيهي التي يجب أن تقرر بعدها الكلية التي ترغب في التخصص بها، كنت أتوق لدراسة الطب، لكن لم تشأ الظروف أن أدرس ما أريد، فقررت، وبمساعدة والدي، أن أدرس تربية فيزياء، ولكن صدقوني أكثر ما كان يقلقني أني سوف أصبح معلمة، فتلك المعلمة كانت تحوم كالشبح حولي، فكلما وصلت لمرحلة اقتناع، أنهزم وتراودني الأفكار والشكوك حتى أكملت دراستي في الفيزياء وتفوقت في تخصصي، ثم جاءت فترة الدراسة العملية والتطبيق في المدارس. بدأنا نذهب بمعدل يوم أسبوعياً إلى المدارس، حيث درّست طالبات الصف الثاني الثانوي، حينها شعرت أن الإنسان يمكن أن يكون ما يريد هو، وليس أن يكون معلم رياضيات، فالأشخاص مختلفون، وإن كان لهم التخصص ذاته، فالمشاعر والأحاسيس تختلف من شخص إلى آخر، وإرادة قوية تحرك المستحيل تجعلك تصوغ وتنسج شخصيتك كما تريد أنت، فتطور مما تعرف، وتمحي ما لا تريد، أو ما لا ينسجم معك، فأصبحت قريبة جداً من الطالبات، وكن يثقن بي، فكنت أعطيهن فرصة للتعبير وإعطاء الرأي.

تخرجت من الجامعة بتقدير جيد جداً بفضل الله، وتقدمت لوظيفة معلم، وخضعت لامتحان في الحكومة، وفي وكالة الغوث. ومن توفيق الله، قبلت في كلتا الوظيفتين، ولكن بعد مناقشة الأهل توصلت إلى قرار بالعمل في «الأونروا»، حيث كان تعييني الأول في مدرسة بنات بني سهيلة الإعدادية شرق خان يونس، وأنا أسكن في غزة.

كان علي أن أركب باص الوكالة المتوجه من غزة إلى خان يونس، وأن أكون عند تجمع الباصات في الساعة الرابعة والنصف صباحاً لأصل مدرستي في السابعة تماماً بسبب الإغلاقات والحواجز على الطريق، واستمر هذا الوضع تقريباً شهرين كاملين، عانيت خلالهما الكثير، فكنت أعود من المدرسة وأصل منزلي الساعة السادسة أو السابعة مساء، وأحياناً يبقى الحاجز مغلقاً فاصل الساعة الثانية عشرة ليلاً، لأعود إلى المدرسة الرابعة والنصف صباحاً. لقد كانت معاناة صعبة بحقي وبحق أطفالي الصغار، ولكن على الرغم من كل ذلك، كنت سعيدة جداً بعملي، حيث أني كنت أعلّم طالبات الصف السابع، كانت تلك الفترة أول ممارسة فعلية حقيقية لعملي كمعلمة، كنت أجري التجارب للطالبات، وأتعلم منهن، فلا عيب أن تتعلم من طالبك، لأن كل طالب بداخله قوة كامنة، ودور المعلم هو إخراج هذه الطاقات.

جانب من مشاركة المعلمة سوزان كحيل في لقاءات التكون المهني في غزة.

بدأت أستعين بالمعلمات القديمات للتعرف على الأساليب والطرق الجديدة، فالدراسة التي نأخذها في الجامعة غير كافية، يجب أن تطعم بالخبرة والتطبيق الواقعي، واستفدت منهن بشكل كبير.

انتقلت بعد ذلك إلى غزة، إلى مدرسة بنات الزيتون الإعدادية (أ)، وعلّمت الصفين السابع والثامن، فوجدت المتعة الكبيرة في التعامل مع هذه الفئات العمرية من الطالبات، لأن في داخلهن طاقة كامنة تحتاج إلى من يفجرها ويخرجها، فكن يملكن موهبة التقليد، والتمثيل، والتأليف، وكتابة القصائد العلمية، وكنت أعطيهن المجال وأطلق العنان للعقول، ولكنهن يحتجن إلى المزيد من العمل وإكسابهن الخبرة.

بدأت سنة بعد سنة أتمرس في مهنة التعليم، وعلّمت بعدها الصف التاسع (علوم وتكنولوجيا)، وكنت أستعين بأختي وزوجها بحكم تخصصهما في مادة التكنولوجيا، فزوج أختي مهندس عمارة، وأختي مهندسة مدنية، ليساعداني على التفاني مع الطالبات، وأجيب عن كل الأسئلة، وأوفر لهن المعلومات كافة عما يحيرهن، وجاءت الخبرة مع الوقت، وأصبحت أنفذ دروساً تدريبة لمساعدة زميلاتي الجديدات، لأعطيهن فرصة الانطلاق والاستفادة من خبرات الآخرين.

كنت أتبع نمط توجيه الأقران، فنفذت دروساً في الاستقصاء والدراما، واستطعت، بمساعدة مديرتي، أن أكوّن النادي العلمي في مدرسة بنات الزيتون الإعدادية (أ). عملنا في مشاريع لتدوير النفايات، وزيارة المؤسسات والوزارات للتعرف على دورها ولتوعية الطالبات، وقمنا برحلات علمية، ثم تواصلنا مع مركز القطان للطفل، حيث كنا نزوره أسبوعياً بعد الدوام على مدى عام كامل لمدة ساعتين، وكانت فرحة الطالبات بالزيارات كبيرة، حيث إن ذلك أعطاهن فرصة للانطلاق وصقل الفكر، كما عزز لديهن قيمة القراءة وحب المكتبة والبحث عن المتعة من خلال تطبيق ما نقرأ بشكل عملي، كما مكن الطالبات من الإحساس بالذات، وصقل أفكارهن، حتى أن الطالبات غير المشاركات في الزيارة كن يشعرن بالغيرة من هذه المجموعة، لأنهن يمارسن التعلم بطريقة ممتعة، فأصبحن يتحدثن بلغة مشتركة، ويعملن بروح الفريق، وطلبن مني أن أكرر هذه التجربة في العام القادم. لقد أتاح مركز القطان للطفل فرصة للطالبات لصقل شخصيتهن، ورفع روح البحث واكتشاف الذات لديهن.

إضافة إلى ذلك، اختارتني مديرتي لأشارك مع زميلة لي مشروع «التعلم عبر المشروع» مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، ما فتح أمامنا آفاقاً جديدة، ورؤية مستقبلية تعود على أنفسنا وطالباتنا بما هو جديد ومفيد، بعيداً عن الروتين والتقليد، وإطلاقاً للتفكير والإبداع.

مدرسة بنات الزيتون الإعدادية (أ)

جانب من مشاركة المعلمة سوزان كحيل في لقاءات التكون المهني في غزة.